الجامعة	**الأنبار**
الكلية	**التربية للبنات**
القسم	**التأريخ**
المرحلة	**الثالثة**
اسم المادة باللغة العربية	**فلسفة التأريخ**
اسم المادة باللغة الانكليزية	**Philosophy of History**
اسم التدريسي	**د.فاطمة سامي شهاب أحمد**
عنوان المحاضرة باللغة العربية	**تطور التدوين التاريخي**
عنوان المحاضرة باللغة الإنكليزية	**The development of Historiography**
رقم المحاضرة	**الخامسة**
المصادر او المراجع	**المفصل في فلسفة التاريخ هاشم الملاح**

المحاضرة الخامسة

تطور التدوين التاريخي The development of Historiography

يطلق تعبير التدوين التاريخي عادة على عملية إعادة البناء التصوري للماضي من واقع الحقائق المستخلصة بالطريقة التاريخية، وقد مرت عملية تدوين التاريخ بمراحل متعددة يمكن تصورها على ضوء الوثائق التاريخية التي تعود إلى الحقب التاريخية المختلفة. ويمكن النظر إلى تلك العملية وفقاً للمراحل الآتية وذلك قبل وصولها إلى المستوى المتطور في حقبة التاريخ المعاصر.

1- العصور القديمة:
في الشرق:

يعد سكان وادي الرافدين ووادي النيل أسبق الشعوب إلى اختراع الكتابة وتسجيل الأحداث في صورة رموز حفرت على الحجر والفخار أو نقشت على البردي، وفي الألف الثاني قبل الميلاد اكتشف الفينيقيون الحروف الهجائية ثم انتشرت هذه الحروف من بلاد الشام إلى أنحاء العالم.

وقد وجد العلماء أن الغرض من أول أشكال التدوين التاريخي كان تخليد السابقين والتذكير بأعمالهم على مدار الزمن، فقد كانت البداية مع التدوين التاريخي رسوماً مقدسةً وسجلات بالأعمال ومسلاَّت تخلد الوقائع الكبرى.

ولقد كان إيداع تلك الوثائق في المعابد وقيام رجال الدين بمهمة التدوين دليلاً على أهمية الوقائع التي تتضمنها الوثائق.

كانت مسألة انحياز الكاتب أثناء عملية التدوين مسألة واضحة على مر التاريخ، وكمثال على تلك الذاتية تصور لنا إحدى المدونات السومرية الدمار الذي لحق بمدينة "أور" على يد العيلاميين بكلمات تفيض بالحزن والأسى حيث تقول المدونة:

(إيـــهٍ إينانا، إن تلك المدينة قد حولت إلى رميم، وتصدعت جدرانها والناس يئنون..

في أبوابها العالية التي كانوا فيها يتنزهون رميت جثث الموتى، وفي شوارعها المشجرة حيث كانت تنصب الولائم استلقوا متناثرين..

أور التي أكل الجوع أقويائها وضعفائها وكوت النيران الآباء والأمهات الذين لم يبرحوا منازلهم والأطفال المضطجعون في أحضان أمهاتهم كالأسماك حملتهم المياه بعيداً..

أواه يا إينانا لقد دمرت أور وشرد أهلها.).

وعلى الرغم من امتزاج التدوين التاريخي في العصور القديمة بالقصص والأساطير ، فإنه يمثل مادة حيوية لإعادة البناء التصوري للحضارات القديمة.

يعد التقويم اتجاهاً جديداً في التدوين التاريخي في العصور القديمة، حيث أصبحت الطريقة المتبعة في التقويم هي نسبة السنة إلى ابرز حدث وقع فيها من قبيل بناء معبد أو حصول واقعة حربية مهمة، وتطور مفهوم التقويم بفعل التطور الاقتصادي إلى نمط جديد ينطوي على رؤية مفهومة للسنوات والأشهر من أجل تلبية مصالح أطراف المعاملات الاقتصادية وبخاصة تلك التي تتعلق بإيفاء الديون والإيجارات واستيفاء فوائد القروض.

في الغرب:

اتخذ التدوين التاريخي عند الإغريق شكل الأسلوب الملحمي، ويذكر في هذا المجال الشاعر الملحمي "هوميروس"، الذي اخذ عنه المؤرخون تمجيد روح البطولة والكفاح الذي يدفع الإنسان إلى التفوق على من حوله، وكذلك يذكر المؤرخ "هيرودوتس 484- 425 ق.م" الذي عبر عن الاتجاه نفسه حين استهل تاريخه بالإشارة إلى إنه يدون التاريخ كي لا يطمس الزمان أعمال الرجال.

وفي التدوين التاريخي عندهم تُلاحظ الأبعاد العلمية في عملية التدوين في أعمال ثلاثة من المؤرخين أولهم هو "هيرودوتس" الذي يعد رائد أسلوب استقصاء الحقيقة التاريخية عن طريق التجوال والترحال، والثاني هو " توسيديدس" الذي يعد أول من فصل التاريخ عن القصة وكان دقيقاً في تحري صحة الوقائع وتواريخها وبلغ مستوىً رفيعاً في الحياد والإنصاف وتحليل الأسباب والنتائج، والثالث هو "بوليب" الذي يعد رائد استقراء خلفية الأحداث وربطها بمجريات الحدث ونتائجه.

وقد تميز التدوين التاريخي عند الإغريق بالميل نحو إخراج النتائج الناجمة عن عملية التدوين بطريقة فنية، كما كان الحال مع "هيرودوتس" حينما سجل الدساتير وصراع الأحزاب والمناورات الدبلوماسية، وكما كان الحال أيضاً مع "توسيديدس" الذي تميز أسلوبه عن أسلوب "هيرودوتس" بالوحدة الدرامية ابتغاء عرض الحركة التاريخية عرضاً محبباً.

أما الرومان فقد اهتموا بتسجيل الحوادث التاريخية وفق أسلوب الحوليات اعتماداً على السجلات الرسمية التي كانت تعنى بها المؤسسات الدينية. * ومن أهم مميزات التدوين التاريخي عند الرومان هو عدُّ الدولة هي محور التدوين التاريخي وهدفه النهائي، أما الشعب ومشاكله فلا وجود لها في تأريخ روما.

وقد تميز التدوين التاريخي عند الرومان أيضاً باعتماده على المؤثرات البلاغية، وقد أدى هذا الحال إلى ضعف الحقيقة التاريخية وإهمال الربط بين أسباب الأحداث ونتائجها، هذا ويعد "شيشرون" أعظم خطباء روما، وهذا يدل على اتجاه التدوين التاريخي وفقاً لتلك المؤثرات.

2- العصور الوسطى:

تأثر التدوين التاريخي في العصور الوسطى بأفول نجم الثقافة الوثنية للإغريق والرومان بحلول القرن الخامس الميلادي، على حساب الثقافة المسيحية التي استقت من التوراة المادة الرئيسية للتاريخ الذي دونت له.

وعلى الرغم من ثراء الكتاب المقدس بالقصص والروايات والأخبار، إلا أن الحاجة إلى التفسير في عين الوقت الذي تزداد فيه الفجوات وتتسع بسبب التعقيد الاجتماعي الناجم عن التطور المستمر في شتى مجالات الحياة بدت ملحة بشكل متزايد، وفي مقابل ذلك برز العديد من الذين أخذوا على عاتقهم مهمة التدوين التاريخي الذي يتماشى مع السياق العام للنص المقدس، وفي طليعتهم كان القديس "أوغسطين 354 – 430 م".

وقد تميزت مرحلة القرون الوسطى بتدوين سير "القديسين الشهداء" فتناولوا فيها تفاصيل حياتهم ومعاناتهم ي سبيل العقيدة المسيحية وحل هذا الاهتمام محل تدوين سير العظماء الذي كان سمة من سمات العصور الأوربية القديمة، وقد تبنت الكنيسة مهمة التدوين التاريخي للحياة اليومية لمجتمعات العصور الوسطى من خلال "اليوميات الكنسية" التي كانت من أبرز مظاهر التدوين التاريخي آنذاك. وسوف يجد المؤرخ لتلك الحقبة من التاريخ نفسه مضطراً إلى اللجوء إلى سجلات الكنيسة وتواريخ الأسر الإقطاعية – التي استعانت برجال الكنيسة من أجل تدوين تأريخها – لأن كل الوثائق التاريخية عن تلك المرحلة كانت بين يدي رجال الكنيسة.

وقد أدى ذلك الحال من تملك الكنيسة للوثائق وسيطرتها على عملية التدوين التاريخي إلى بروز التزييف كظاهرة لازمت عملية التدوين، وقد كان لاكتشاف زيف بعض الوثائق المهمة أبعاد خطيرة ليس على موقف الجهة التي احتفظت بها وإنما على تطور البحث التاريخي، ولعل وثيقة "هبة قسطنطين" التي اكتشف زيفها المؤرخ الإيطالي " لورينزو فالا" والتي منح الإمبراطور "قسطنطين 305 – 337م" بموجبها ملكية روما إلى "البابا"، والتي احتفظت بها لتعزيز سلطتها الزمنية، لعل تلك الوثيقة تكشف مدى التزييف الذي لحق بعملية التدوين التاريخي خلال فترة العصور الوسطى.

3- طلائع العصر الحديث:

حقق ميدان العلوم تطوراً كبيراً يعزى الفضل فيه إلى استخدام العلماء لمنهج "فرنسيس بيكون" التجريبي في معالجة قضايا العلم في حقوله المختلفة، ولقد كان من أبرز أولئك العلماء هو "غاليلو" و"كبلر" و"نيوتن"، والذين دفعت جهودهم علم الطبيعة خطىً واسعةً إلى الأمام.

وتحت ظِلال التطور العلمي وكنتيجة له برز الاتجاه العقلاني بدلاً من الاتجاه الغيبي في تفسير الظواهر المختلفة، وكان لذلك التحول صداه على الحقل التاريخي حيث ابتعد المؤرخون عن الخوارق والمعجزات في تفسير الحوادث، كما انحسر الاتجاه الديني الذي كان يهتم بسير القديسين ويؤكد على المواعظ المسيحية، وأعيد النظر في الوثائق والصكوك وقومت السير المقدسة على ضوء ذلك، ولقد سطع نجم المؤرخ "جان مابيلون" الذي عُدَّ أشهر مؤرخ وباحث في القرن 17.

وأصبحت "الدولة" والمؤرخ الذي أصبح أحد رجالاتها مركز الاهتمام في التدوين التاريخي، وبذلك أصبح لكل دولة مؤرخها الرسمي الأمر الذي ساعد على بلورة الوعي القومي في أوربا، فكان "كويجارديني 1483 – 1540 م" مؤلف "تأريخ إيطاليا" و "ميزوراي1610- 1683م" مؤلف "تأريخ فرنسا" وكذلك "مكيافيللي 1496- 1527م"، وكانت من نتائج هذا الميل في كتابة التاريخ هو الاهتمام بمصالح الأمراء والأسر الحاكمة، الأمر الذي أدى إلى إهمال الجماهير واحتقارها أحياناً.

وقد كان للثورة الدينية وما تبعها من حروب طاحنة، أثر بارز على التدوين التاريخي، فبعد تعرض مكتبات الكنائس والأديرة والجامعات إلى السلب والنهب، وقع قسم كبير من الكتب بين أيدي الباحثين، فقاموا بتصنيفها وتحقيقها وإعادة نشرها، وبرز أسماء كثير من أولئك الباحثين ومنهم "جان بودين"، و"داشيري".ولعل من أهم النتائج التي أسفرت عنها جهود أولئك الباحثين والوثائقيين هي إنشاء دور الوثائق ووضع الأسس لطرق البحث التاريخي وتقويم العلاقة بين أحداث التاريخ وبيئة تلك الأحداث.

4- القرن الثامن عشر:

استمر تأثير التقدم العلمي الذي كان سائراً على أضواء المنهج الكارتيزي في فترة عصر الأنوار، فعُدَّ المجتمع من الدولة إلى أبسط عائلة أكداساً بشرية تتصرف وتجتمع وتنتظم ميكانيكياً، وأول من استخدم منهج "ديكارت" في التاريخ هو "بييربل 1647 – 1760".

وقد انعكست الاتجاهات العلمية على الدراسات التاريخية في النقاط التالية:

1-النزعة النقدية التي سادت عصر التنوير كرد فعل لسلطة الدين، وقد اتخذ التيار النقدي طابعا عنيفا إلى حد محاولة إخضاع الوقائع التاريخية المذكورة في الكتاب المقدس للنقد التاريخي.

2-النزعة الإنسانية التي تعلي من قدر الإنسان بعد أن تحرر من سلطة الدين التي تغض من شأنه وتعده وارثا للخطيئة الأصلية. فقد أصبحت أفعال الإنسان موضوع التاريخ بصرف النظر عن التقييم الديني لهذه الأفعال، كما استبعدت أية قوة غيبية في تحديد مسار التاريخ.

وقد أثر في عملية التدوين التاريخي مجموعة كبيرة من المفكرين والفلاسفة ومن أشهرهم:

1- "مونتسكيو 1689 – 1755": حاول وضع علم للمجتمع مبني على الاستنتاجات من الحقائق المجتمعة ضمن جهوده لتفسير أصل وتطور المؤسسات السياسية حيث كان لا بد من الرجوع إلى التاريخ الاقتصادي والاجتماعي.

2- "فولتير 1694 – 1778": كان يرى في التاريخ وعاءاً يضم للإنسان فكرة التقدم، وكان معارضاَ شديداً للكنيسة فيما يخص التصور اللاهوتي للتاريخ، فقد كان التاريخ علماً علمانياً خالصاً بدون تدخل القوى الإلهية فيه، فهو – بالنسبة لفولتير – من صنع أناسٍ عاديين تحركهم دوافع إنسانية خالصة، ومن خلال استقراءه للتاريخ استنبط "فولتير" نتيجةً استوحاها من العلاقات الجدلية التي تربط مراحل التاريخ والتي تفرضها نواميس الطبيعة، وكان مؤداها أن كل حدثٍ في الحاضر يولد من الماضي ويولِّد المستقبل. وأن الترابط السرمدي للأشياء غير قابل للانقطاع أو للتغيير وأن الطبيعة برمتها خاضعة لنواميس لا عودة عنها.

3- "ديفيد هيوم 1711 – 1776": تمسك بالرأي ألاستنتاجي العملي للتاريخ وازدرى سرد الحقائق المجردة المملة، وكافح التعصب الأعمى والخرافات والاستبداد بالرأي وأدان التفسير اللاهوتي للتاريخ وأكد على العوامل الأخلاقية وعدَّ التقدم الحضاري هو معنى التقدم.

4- "لايبنتز": كان تأثير الروح العلمية على التدوين التاريخي واضحاً من خلال دعوته إلى فصل المؤرخ عن تفسير الحوادث، ومن خلال الدعوة إلى ضرورة دراسة نفسية المؤرخ، وقد كان "لايبنتز" يرى أن هناك ثمة ذرة من الصدق حتى في الأساطير ومن الواجب العثور على تلك الذرة. وبالإضافة إلى "لايبنتز" فقد لمع اسم "كونهولد ليسينك" بوصفه رائداً لكتابة التاريخ الحديث لألمانيا.

5- "عمانوئيل كانط":يعد من الدعامات الفكرية التي ساهمت في تشكيل الفكر الأوربي الحديث عموماً والفكر الألماني خصوصاً، وتأثر به من قد جاء بعده كـ "هيجل" و "رانكه"، وعنده لم يكن الماضي هو الذي يقرر موقفنا من الحاضر بقدر ما يقرر الحاضر موقفنا تجاه الماضي، حيث أن تصورنا تجاه الماضي يتغير باستمرار متوقفا على المستوى الروحي للثقافة الحاضرة.

لقد تميز الفكر الألماني في عصر التنوير بالتأكيد على الوجدان وصيرورة القيم الخالدة، فيما تميز التنوير الفرنسي بالاعتماد على العقلانية ومذهب المنفعة وبشر بالإلحاد.